موقع الرسالتين إلى روما وإلى غلاطية في اللاهوت المصلح

القَسّ عيسى دياب

نظرت الكنيسة المصلحة إلى الكتاب المقدّس بحُبٍّ كبير وتقدير استثنائي
[صورة مارتن لوتر (١٤٨٣–١٥٤٦)، للرسام لوقاس كْرَاناخ]

دعا اللاهوتي البروتستاني، فريديرك غوديه (Frédéric Godet)، الرسالة إلى «روما» كاتدرائية الإيمان المسيحي. تحتل هذه الرسالة مركزا مرموقا في تاريخ العقيدة المسيحية. فقد اهتدى أوغسطينوس تحت تأثير روم ١٣ : ١٣ و١٤ سنة ٣٨٠، وقد قام مارتن لوثر، الراهب الأوغسطيني بإصلاحه المشهور، سنة ١٥١٧، تحت تأثير مفهوم جديد للآية المعروفة في روم ١: ١٧. فهل من باب الصدفة التقى «الأوغسطيني الثاني» بـ «الأوغسطيني الأول» بعد نيف وألف من السنين على ساحة الرسالة إلى «روما» ؟

أود، في المقدمة، أن أقدم رأياً تحليلياً مختصراً في الإصلاح الإنجيلي، قد لا يشاركني فيه بعض مؤرخي الكنيسة لحقبة الإصلاح. لقد أُشيد بناء الإصلاح الإنجيلي على قاعدة «التبرير بنعمة الله، بالإيمان وليس بأعمال البشر»، ومن هذه القاعدة صعد بناء الإصلاح ليطال المواضيع الأخرى التي اعترض عليها المصلحون. بكلام آخر، لو قبلت الكنيسة آنذاك مبدأ «التبرير بالنعمة» لكانت قد اختصرت بذلك المواضيع

الأخرى التي جرى الاعتراض عليها. ذلك لأن هذه النقطة بالذات تطال، مباشرة أو غير مباشرة، المواضيع الأخرى، أو لأن برفضها قد تطورت عملية الاحتجاج لتطال نقاطاً أخرى. إذاً عقيدة «التبرير بالنعمة» هي العمود الفقري في الجسم العقائدي للإصلاح. لا يخفى على أحد أن للاهوت البولسي، بشكل عام، ولرسالة بولس إلى روما بشكل خاص، وقعاً طيباً في الوعي واللاوعي الإنجيليين. فهذا الوقع الطيب، أمحسوساً كان أم مجرداً، يصاحبه، في بعض الأحيان، وقع رومنطيقي نابع من تأثير الذاكرة التاريخية على الوعي الشعبي في الكنيسة الإنجيلية. ذلك لأن اللاهوت البولسي، كما هو معبر عنه في الرسالة إلى روما، هو المرجعية الكتابية لهذه «القاعدة الإصلاحية». من هنا يأتي مبرر الحظوة الخاصة التي حظيت بها الرسالة إلى روما في الذاكرة الشعبية الإنجيلية وأهميتها في اللاهوت المصلح. وبما أن رسالة بولس إلى غلاطية تتضمن تكراراً للموضوع الرئيس الذي أقام عليه بولس بناء الإصلاح الشامخ، ألا وهو التبرير بالنعمة وبالإيمان بعيداً عن الأعمال، وبما أن بولس يكرر فيها «كلمة السر» الإصلاحية: «أما البار فبالإيمان يحيا»، من هنا تكتسب الرسالة إلى غلاطية أهميتها في اللاهوت الإنجيلي، تضاف إلى أهمية الرسالة إلى روما.

استعراض تاريخي «إصلاحي»

عندما دخل مارتن لوثر الدير، وكان ديرا اوغسطينياً، ترك اسمه الشخصي واتخذ بدلا منه اسم اوغسطينوس. وفي الدير طالع لوثر مؤلفات آباء الكنيسة، ولا سيما مؤلفات القديس اوغسطينوس وتفسيره لسفر المزامير وكتابه في الحرف والروح، «ولن يعجبه شيء اكثر من آراء هذا القديس في فساد إرادة الإنسان وفي النعمة الإلهية، وشَعَرَ، لما اختبره بحقيقة ذلك الفساد والاحتياج إلى تلك النعمة»[1].

لبى لوثر الدعوة وذهب ليعلم في كلية وتنبرغ. وبينما كان يدرّس الرسالة إلى روما، وبلغ منها الآية السابعة عشرة من الفصل الأول، وهو قول الرسول: « أما البار فبالإيمان يحيا»، أثرت فيه هذه الآية كل التأثير فقال في نفسه: « إذاً، للبار حياة غير حياة من ليس ببار، وهذه الحياة ناشئة عن الإيمان»[2]. وهذا كشف له سر الحياة المسيحية وزادها فيه، وكان كثيرا ما يسمع، وهو في الأشغال والأعمال الكثيرة، صوتاً في نفسه يرتفع بقوله تعالى:« أما البار فبالإيمان يحيا». فكان مارتن لوثر لا يبرح مردداً ذلك القول. وانتشر الخبر بأن التبرير نعمة إلهية بالإيمان ولا أجرة للأعمال الصالحة، فانجذب إلى الكلية كثير من الشبان. يتفق المؤرخون على أن هذه كانت الخطوة المفصلية التي دخلت لاوعي مارتن لوثر ودفعته للقيام بإصلاحه في ما بعد.

في خطواته الأولى الإصلاحية، أحيى مارتن لوثر الجدل التاريخي الذي كان قائما بين بيلاجيوس وأوغسطينوس حول «حرية الإرادة»، فنفى «خلاص الإنسان» باختياره الشخصي كبيلاجيوس، و علّم خلاص الإنسان «باختيار الله» كأوغسطينوس. وإليكم بعض القضايا التي نشرها مارتن لوثر نفيا لفلسفة اللاهوت البيلاجي[3]:

القول بأن الإنسان بعد السقوط لا يقدر ان يريد او يعمل غير الشر قول حق.

القول بأن الارادة، اذا تُركت لنفسها، تقدر على عمل الخير كقدرتها على عمل الشر قول باطل.

إننا لا نتبرر بعمل البر بل اذا تبررنا نعمل البر.

ان شريعة الله وارادة الانسان خصمان لا تُمكِنْ مصالحتهما بدون نعمة الله.

في صياغته لهذه الفقرات، وفي انعاش الدفاع عن اللاهوت الأوغسطيني، استند مارتن لوثر على دراسته للرسالة الى «روما» في العمق. وكل النقاط التفصيلية المتعلقة بموضوع حرية الإرادة او التبرير بالنعمة دعمه بنصوص من هذه الرسالة.

المشترك بين «روما» و«غلاطية» وعلاقتها بالإصلاح

يوجد بين «روما» و«غلاطية» تشابه كبير في المضمون. فكثير من المواضيع التي تناولها بولس في «روما»، تناولها ايضا في «غلاطية». ومع المحافظة على الفارق التاريخي لكتابة الرسالتين، ومع الاشارة الى حصول تغيُّر في فكر بولس، الدوافع لكتابة كل من الرسالتين، يبقى

١- ميرل دوبنيان، ترجمة الشيخ إبراهيم الحوراني، **تاريخ الإصلاح في القرن السادس عشر**. (مكتبة المشعل، بيروت ١٨٧٨، طبعة ثالثة ١٩٨٢) ٤٥.
٢- المرجع نفسه، ص ٥٣.
٣- المرجع نفسه، ص ٧٣-٧٤.

موضوع التبرير بالنعمة هو القاسم المشترك بين الرسالتين. واذا خضنا في التفاصيل، نستطيع ان نستخرج من المضمون النقاط المشتركة التالية، وكلها متعلقة بعقيدة اللاهوت المصلح الأولى:

١. الإنجيل هو الأساس الصحيح للعقيدة المسيحية.

٢. عمومية الخطيئة وفساد الإنسان الساقط وعجزه عن تبرير ذاته.

٣. بر الله هو المقياس المطلوب للخلاص.

٤. يحصل الإنسان على بر الله بنعمة الله وليس بأعمال الشريعة.

٥. نتائج أعمال الناموس ما هي إلا الفشل ومزيد من الشعور بالعجز.

٦. نتائج عمل نعمة الله في الإنسان: التبرير وثمار الروح القدس.

٧. الحرب الدائرة في داخل الانسان بين الجسد والروح وانتصار الروح تحت تأثير عمل نعمة الله.

إن هذه المواضيع، كما هي مدرجة أعلاه، ترسم التسلسل المنطقي والمنهاج اللاهوتي لعقيدة الإصلاح الأساسية: التبرير بنعمة الله، بالإيمان. فالخطوات تتوالى من أسفل إلى أعلى:

١) فساد الإنسان نتيجة للسقوط،
٢) عجز الإنسان،
٣) عجز الشريعة،
٤) تدخل نعمة الله،
٥) إيمان الإنسان بفعل نعمة الله،
٦) حصول التبرير،
٧) نظام الحياة الجديدة في المسيح.

القِيَم اللاهوتية لرسالتي «روما» و«غلاطية» وخدمتها العقيدة المصلحة

اجتمع المصلحون الكبار الأربعة: لوثر، كالفن، تسفنغلي وفاريل عند العامود الفقري للإصلاح، ألا وهو عقيدة التبرير بالايمان. فبالنسبة إلى لوثر، المنطلق الأول للإصلاح، كان اكتشافا ثوريا: إن بر الله هو البر الذي به نصير أبراراً.

بالإشارة إلى منهاج الخلاص بحسب اللاهوت المصلح، تعطي «روما» تفسيراً منهجياً شاملاً لحقائق الخلاص العظيمة مُفَسّرة بطريقة منطقية ومؤيَّدة من العهد القديم. وهذا ما يجعل القارئ يلمس استمرارية العهد الخلاصي من الوعد، فالعهد، فالتحقيق في المسيح.

يصل الإنسان من العهد القديم، من تحت سلطان الشريعة، إلى المسيح منهكاً بفعل محاولاته لتخليص نفسه، لكن دون جدوى، لا هو استطاع أن يخلص نفسه، ولا الشريعة استطاعت أن تخلصه: **«ونحن نعلم أن كل ما تقوله الشريعة إنما تقوله للذين هم في حكم الشريعة، ليسكت كل إنسان ويخضع العالم كله لحكم الله. فبأعمال الشريعة لا يتبرر أحد عند الله، لأن الشريعة لمعرفة الخطيئة»** (٣: ١٩–٢٠). وفي هذه الحال المزرية من الفشل والإحباط، تتدخل نعمة الله لتدخل الإيمان في قلب الإنسان، إيمان بالمسيح وبعمله الفدائي عن الإنسان، وهذا أيضاً يعبر عن نعمة الله، وبقبول الإنسان لهذه النعمة يتحقق بر الله ويتبرر الإنسان: **«ولكن الآن ظهر كيف يبرر الله البشر من دون الشريعة، ... فهو يبررهم بالإيمان بيسوع المسيح: ولا فرق بين البشر، فهم كلهم خطئوا وحرموا مجد الله، لكن الله يبررهم مجاناً بنعمته بالمسيح يسوع الذي افتداهم... والله فعل ذلك ليظهر بره...»** (٣: ٢١–٢٥).

حتى الترتيب المتبع في الرسالة يتطلب انتباهاً خاصاً، فنلاحظ أن الرسالة منقسمة إلى قسمين: ١) للعقيدة و٢) للحياة. فهذا الترتيب يعبر أيضاً عن لاهوت مصلح، لأن العلاقات المستقيمة يجب ان تُبنى اولا مع الله، قبل ان يعيش احد لإرضاء الله والتوسط لدية من اجل البركات للآخرين.

السؤال الذي يطرح عادة: «ما هو الموضوع الأساسي او الاساس في اللاهوت البولسي»؟ بعضهم قال التبرير بالايمان، البعض الآخر اصرَّ على ان الحياة «بالمسيح» هو السر، لأنها تنقل الانسان من صلابة وعقم المصطلحات القانونية او الشرعية وتُبين العلاقة الاكيدة والقوية للمؤمن مع الله. لحسن الحظ ليس بامكاننا الاختيار بين الاثنين، اي التبرير بالايمان او الحياة «بالمسيح»، لأن كليهما مهم في تقديم بولس للموضوع. لأنه بدون تبرير لا يوجد حياة بالمسيح (روم ٥: ١٨). من ناحية ثانية، هكذا حياة، أي حياة بالمسيح، تؤكد حقيقة التبرير. التبرير هو الموضوع الأهم في رومية (١: ١٦)، خلاص مقدم بلغة بر الله والذي عندما ناخذه بالايمان يُثمِر في الحياة (١: ١٧)[٤].

من المفيد ان نتحقق ان التبرير، البر، والحياة هي عبارات إسخاتولوجية. فالرسول يتكلم عن التبرير بلغة مستقبلية (١٣: ١١). البر، بالمعنى المطلق، يختص فقط بالحالة الكاملة. مرة اخرى «الحياة» تصل الى معناها الكامل بمعايير مستقبلية (٦: ٢٢؛ مر ١٠: ٢٩، ٣٠).

٤– HARRISON, Everett F., "Romans" in *The Expositor's Bible Commentary*, vol. 10 (Frank Gaeblein, (Gen. Ed.), Grand Rapids: Zondevan 1976) 7.

وبالرغم من ذلك، فكل هذه الحقائق المستقبلية يمكن أن يتمتع بها القديسون خلال رحلة الحج الارضية. التبرير هو حقيقة حاضرة (١٠: ١٠)، وكذلك البر (٤: ٣-٥)، وكذلك الحياة (٦: ٢٣، ٨: ٢). فقط نعمة الله تسمح لنا بالاشتراك فيها والتمتع بها الآن، مع أنها تختص بالمستقبل.

أما بالنسبة إلى القيم اللاهوتية لرسالة غلاطية وعلاقتها بالإصلاح، فلقد استفاد المصلحون من الثورة العارمة التي شنها بولس على المسيحيين المتهودين الذين، بالرغم من اهتدائهم الى روحانية المسيحية وحريتها، طالبوا المسيحيين بالعودة الى مادية الناموس واستعباده للإنسان. هذه الثورة التي كانت منطلق بولس في «روما» ليحاضر في العقيدة المسيحية، اخذت القسم الأكبر من «غلاطية». كانت الرسالة «حجر الزاوية» للمصلحين الإنجيليين الأوائل. دعاها مارتن لوثر (Catherine von Bora) لأنه، كما قال نفسه «لقد تزوجتها»[٥]. بينما كان بولس، في رسالته إلى روما، يحرر قصة اختباره الشخصي ومسيرته الإيمانية التي خاضها بينه وبين نفسه[٦]، بينما بولس في «غلاطية» يشن هجوماً عنيفاً على «المتهودين» الذين أرادوا أن يعودوا بالمسيحية من «التبرير بالنعمة» و«الحرية بالمسيح» إلى «محاولة تخليص النفس بأعمال الشريعة» ووضع الإنسان نفسه في حالة عبودية لها. إن أطروحة بولس في «غلاطية» هي «الخلاص بنعمة الله بواسطة الإيمان بالرب يسوع المسيح»، كأساس لا غنى عنه للعقيدة المسيحية والسلوك. «ولوثر، بإعادة اكتشافه لهذه العقيدة الأساس وتعليمه إياها، رد للكنيسة قلبها الروحي وحريتها»[٧].

مسيرة «روما» و«غلاطية» في اللاهوت المصلح

ليس فقط أوغسطينس، وليس فقط مارتن لوثر والمصلحون الأوائل من تأثر بهاتين الرسالتين، إنما جيش من اللاهوتيين والرعاة غرفوا البركات الروحية لنفوسهم ولنفوس من خدموهم انطلاقاً من درسهم لها. أريد أن أقدم للقارئ مثلين إثنين فقط، واحداً من عصر التنوير، وأخر من اللاهوت المعاصر.

بعد الإصلاح بحوالي مائتي سنة، في ٢٤ أيار سنة ١٧٣٨ وبينما كان المصلح الانكليزي المعروف جون وسلي يحضر اجتماعاً دينياً في مدينة لندن، كان أحد القراء يقرأ مقدمة لوثر في الرسالة إلى روما، كتب وسلي عن نفسه هذه الكلمات: «حوالي التاسعة إلا ربعاً، وبينما كان يصف التغيير الذي يجريه الله في القلب بواسطة الإيمان بالمسيح، شعرت بحرارة غريبة في قلبي. شعرت بأنني أثق فعلاً بالمسيح، بالمسيح وحده، من أجل خلاصي، وأعطيت تأكيداً بأنه أخذ خطاياي بعيداً عني وخلصني من ناموس الخطيئة والموت»[٨].

أما المثال الآخر فهو عن اللاهوتي المعروف كارل بارت الذي ختم العصر الليبرالي وترك بصمات مباركة في الأرثوذوكسية المتجددة ودخل كل الدوائر اللاهوتية المسيحية. في بداية عمله الرعوي والاكاديمي، وفي حقبة ما قبل الحرب العالمية الأولى، وقع بارت تحت تأثير اللاهوت الليبرالي. لكن ويلات الحرب العالمية الأولى وما خلفته من دمار، وانكباب بارت على دراسة «روما»، كانت كافية لتغير وجهة مسيرة بارت اللاهوتية والايمانية، من وهم الايجابية الليبرالية الى واقعية الأرثوذوكسية الجديدة. ومع اصداره الطبعة الأولى من تفسيره لرسالة «روما» سنة ١٩١٨، انفصل بارت كلياً عن الليبرالية اللاهوتية الى الإيفانجيليكالية Evangelisms والأرثوذوكسية الجديدة New Orthodoxy. تعلم بارت من «روما» ان ملكوت الله لا يُبنى بواسطة انسانٍ منهمك بالعمل الاجتماعي دون ايمان حي بالله، بل بانسان حصل على نعمة الله، فرد على الله بايمان حي وكانت النتيجة حياة مليئة بالفضائل وقادرة على بناء ملكوت الهي.

٥- BOICE, James Montgomery, "Galatians" in *The Expositor's Bible Commentary*, vol. 10 (Frank Gaeblein (Gen. Ed.); Grand Rapids: Zondevan 1976) 409.

٦- إن هذا الرأي يحتاج طبعاً إلى استعراض وتقديم براهين، لكن ليس هنا المكان المناسب.

٧- BOICE, *Id.*

٨- John Wesley's Journal from the entry for 24 May 1738. Cité par STOTT, John, "The Message of Romans" in *The Bible Speaks Today.* (London: Intervarsity, 1994) 22.